

[٣]

حديث شطط في الطريق الى سجن شططة

لم يشأ الرجل الكبير الا ان يصحبني الى بيت خالتي فيسلمني الى مدير السجن تسليم اليد باليد . فنحن ، الذين ورثنا الدولة عن آبائنا ، نظل مرانبا عالية ولو في قاووش السجن . كتولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد الى جزيرة سيشل .

او هكذا أوهمت نفسي حتى اركبوني في سيارة البوليس المقلدة ، الرجل الكبير مع السائق الكبير وانا محشور مع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب . فلما اقفلوا الباب قلت : صونا لسمعتي . فلما تأنفوا من شدة الحر . وكنا في آب الهباب ، تأففت معهم . فانهالوا علي لكما ورفسا وانا اصيح : النجدة النجدة ايها الرجل الكبير . ولفظتها بلغة عبرية فصحي لاقتعهم بعلو كعبي وحتى أقوم من تحت اكعابهم ، فتوقفت السيارة .

فاذا نحن على مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال . وقد عرجنا على طريق المرج ، مرج ابن عامر . وكان الرجل الكبير يؤشر لهم ، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب ، فانزلوني وحشروني الى جانبه ، بينه وبين السائق ، فاسترحت وتنهدت واستنشقت الهواء النقي وقلت : مرج ابن عامر .

فزجرني وقال : بل سهل يزراعي .

قلت مراضيا : « وما يهم الاسم » كما قال شكسبير ؟ وقلتها بالانجليزية .

فقال مهمهما : وتروي عن شكسبير ايضا ؟

فاسترخت مبتسما .

فزجرني وهمهم بصوت مسموع ان هم ، هم . ولو كنت اعلم بما وراء هذه المهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب .

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية ، واكتاف تلال الناصرة الى يسارنا ، أخذ الرجل الكبير يلقنني مبادئ حياتي الجديدة في السجن ، واصول التأديب مع السجنائين من فوقني ومع السجناء من تحتي . وذلك بعد أن وعدني بترقيتي همزة وصل .

وكنت ، كلما أمعن في هذا التلقين ، ازداد يقينا انه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتى صحت . من شدة الاستحسان : ما شاء الله !

وكان يقول : اذا ناداك السجن فليكن اول جوابك — نعم يا سيدي ! فاذا انتهرك السجن فطليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي ! واذا سمعت من زملائك المسجونين كلاما فيه أي مساس بأمن السجن ، ولو تأويلا ، فعليك ان تشي بهم الى المدير . فاذا ضربك مدير السجن فقل له ..

فقاطعت هاتفا : ححك يا سيدي !

قال : كيف علمت ؟ وهل كنت مسجوننا قبل ان نسجنك ؟

قلت : حاشا ، يا سيدي ، ان يسبقكم أحد الى هذا الفضل . انما وجدت ان سجونكم ، عطفنا على ما شرحته من اصول التأديب في سجونكم ، هي من الانسانية والرحمة في معاملة المسجونين بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنا ، ولا تختلف . فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي ؟